مواجهة الغرب وثقافته التصويرية من قلب أوروبا

صور التشكيلي السوداني حسن موسى في المغترَب

بورتريه ذاتي

الاغتراب، من حيث هو نأي عن الأرض الأولى وثقافتها، قد يفتح الباب أمام المبدع على عوالم جديدة وأدوات مختلفة تبعده كثيراً أو قليلاً عن المكان الذي أتى منه. الفنان التشكيلي السوداني حسن موسى يعالج المغترب وأسئلته، باتخاذه معبراً لشخصية فنية وهموم تشكيلية وثقافية، تقربه أكثر من أصوله، وتنقله من موقع المتلقي إلى موقع المشارك المشاغب والصدامي.

صلاح حسن أحمد *

سوء الطالع درجات. ومن درجاته العليا أن يولد الإنسان بموهبة عظيمة في مكان لا يعرف قيمتها، أو يعرفها، لكنه لا يرقيها إلى مرتبة المهمات-الهموم، فيصبح بالتالي هو المكان «الخطأ» بالنسبة إلى صاحب تلك الموهبة. والحديث هنا عن فنان أتيح له أن يجمع بين ملكة الإبداع التشكيلي المتميّز، والأدوات الفكرية اللازمة لـ«إكمال الدائرة»، ومنها القدرة على التعبير «الكلامي» عن التشكيل، وتوظيف الجمال في خدمة الحضارة الإنسانية.

هذا هو الفنان (والمنظّر) السوداني، الذي تشاء له الأقدار أن ينطبق عليه القول «لا كرامة لنبيّ في وطنه». وقد كُتب عليه هذا بحكم انتمائه إلى رقعة جغرافية (إطارها الكبير العالم العربي وأفريقيا) تعُد التشكيل -في أفضل الأحوال- هواية جانبية لا يُطعم منها الرجل أبناءه، وتصنّف الفنان التشكيلي في خانة الشخص «المتعوس وخايب الرجاء» (تعيس الحظ الذي لا يفيد مجتمعه بشيء من عمله). ولكل هذا ساقته قدماه المتعبتان، كحال عديدين آخرين، ليستقر به المطاف في فرنسا، حيث يعُد الجمهور الفنون الجميلة في صلب ثقافته، ويعلم أن بين الأعمال التشكيلية ما يُعد أحد أفضل سبل الاستثمار تماماً كالذهب.

وبلغ من شأو حسن موسى، في سنوات اغترابه الطويلة في الغرب، أن دور عرض مرموقة صارت تحتفي بأعماله، على غرار «غاليري باسكال بولار» البلجيكي، الذي استضاف، للمرة الثالثة، معرضاً لبعض أعماله بدأ في التاسع من مارس/ آذار، واستمر حتى نهاية أغسطس/ آب الماضيين.

الرحّالة

يلاحظ المتابع لأعمال موسى أنه «رحالة» داخل دنيا التشكيل نفسها أيضاً؛ فهو لا يستطيب الثبات في مكان واحد والتزام نهج فني واحد، وإن كان يعود أحياناً إلى أسلوب اتبعه في الماضي و«أمكنة» سابقة، ثم يغادرها مجدّداً. وأنت تجد أن أغلبية الفنانين الذين ما إن راق لهم البقاء في ضرب معين من الرسم والتلوين (يسمّونه «الأسلوب الخاص») حتى لبثوا فيه بقية العمر. لكن موسى يرفض أن يتخذ من نوع معين من التشكيل قوقعة يدخل فيها ويحتمي بها من رياح التغيير. يرفض هذا الفنان الحدود والتصنيف والزنزانات الفنية عندما يتعلق الأمر بالفن التشكيلي؛ ذلك أن التشكيل بالنسبة إليه هو الكون نفسه مفتوحاً لمن يرغب في سبر أغواره وتصوير أو تأويل ما يشاء منه في لوحاته.

بيع ما ليس للبيع

بعض ما طرحه موسى، في معرضه الأخير في بروكسل، هو ترجمة تشكيلية لما يسميه «التأثيث ثلاثي الأبعاد»، وهذا مفهوم، أو أسلوب، يتعلق بالأثاث المنزلي المألوف (كراسي ومناضد... إلخ) الذي ينزع عنه الفنان السوداني وظيفته المعتادة (الكراسي للجلوس مثلاً) محاولاً إبراز قيمته الجمالية والفلسفية، وتقديمه بصورة نضرة لا تتصل بصورته اليومية الرتيبة. والغرض من هذا «وضع أنواع المتاع في سياق مغاير، وإعادة تعريفها بطريقة تشحنها بمدلول جديد، غير مدلولها اليومي العادي»، كما يقول. ويتجلى مفهوم «التأثيث» هذا في ثلاث مجموعات مختلفة من اللوحات التقليدية المنفذة على القماش، استلهمها من عبارة «الأسرع، الأعلى، الأقوى»، وهي شعار الألعاب الأولمبية.

وتتكون المجموعات من ثلاثة من الكراسي المتحركة معلّقة على الحائط، وعلى كل واحد منها كلمة من شعار الأولمبياد، وفوقه قطعة كبيرة في شكل علم عليه صورة الدولار الأمريكي. والرسالة الواضحة هنا هي الإدانة لتغوّل منطق السوق على القيم الإنسانية السامية ممثلة في الأولمبياد، فقد أصبحت الألعاب ساحات ومضامير للمتنافسين الحقيقيين، وهم أصحاب الشركات العملاقة العابرة للقارات. ووفقاً لموسى، فإن منطق «التسليع والتسويق» ليس مقصوراً على الأولمبياد (وبقية المناسبات الرياضية)، بل بين ضحاياه الثقافة والفنون والتعليم والصحة والأرض أيضاً، وتطول القائمة لتشمل ظواهر تسليع الحياة، مثل التلقيح الصناعي، والبيئة الطبيعية، والأنسجة العضوية للأحياء. وما يدور حوله هذا الشقّ من المعرض هو مبدأ أن عالمنا (المادي والرمزي) ميراث جمعي، وأن هذا الميراث ليس للبيع. يقول الفنان السوداني إن العالم نفسه «غابة من التصاوير الجامحة العامرة بالاشتباهات من كل الأصناف. وفي غابة التصاوير شرع واحد معروف هو شرع الغاب. وعليه، وكمسلك طبيعي، تسعى الصور

يرفض هذا الفنان الحدود والتصنيف والزنزانات الفنية عندما يتعلق الأمر بالفن التشكيلي؛ ذلك أن التشكيل بالنسبة إليه هو الكون نفسه مفتوحاً لمن يرغب في سبر أغواره وتصوير أو تأويل ما يشاء منه في لوحاته

حسن موسى مع أحد أعماله

حسن موسى

ولد في يناير/ كانون الثاني 1950 في مدينة النهود بالسودان. تخرّج في قسم التلوين بكلية الفنون الجميلة في الخرطوم عام 1974، ونال الدكتوراه في تاريخ الفنون من جامعة مونبلييه الفرنسية في عام 1990 برسالة عن «التحول في المراجع الثقافية عند أهل السودان الأوسط من خلال مثال الفنون التشكيلية المعاصرة». وهو يعرض أعماله منذ السبعينيات من القرن الماضي داخل السودان وخارجه، بما في ذلك معظم كبرى العواصم الأوروبية والأمريكية، إضافة إلى بعض العواصم العربية.

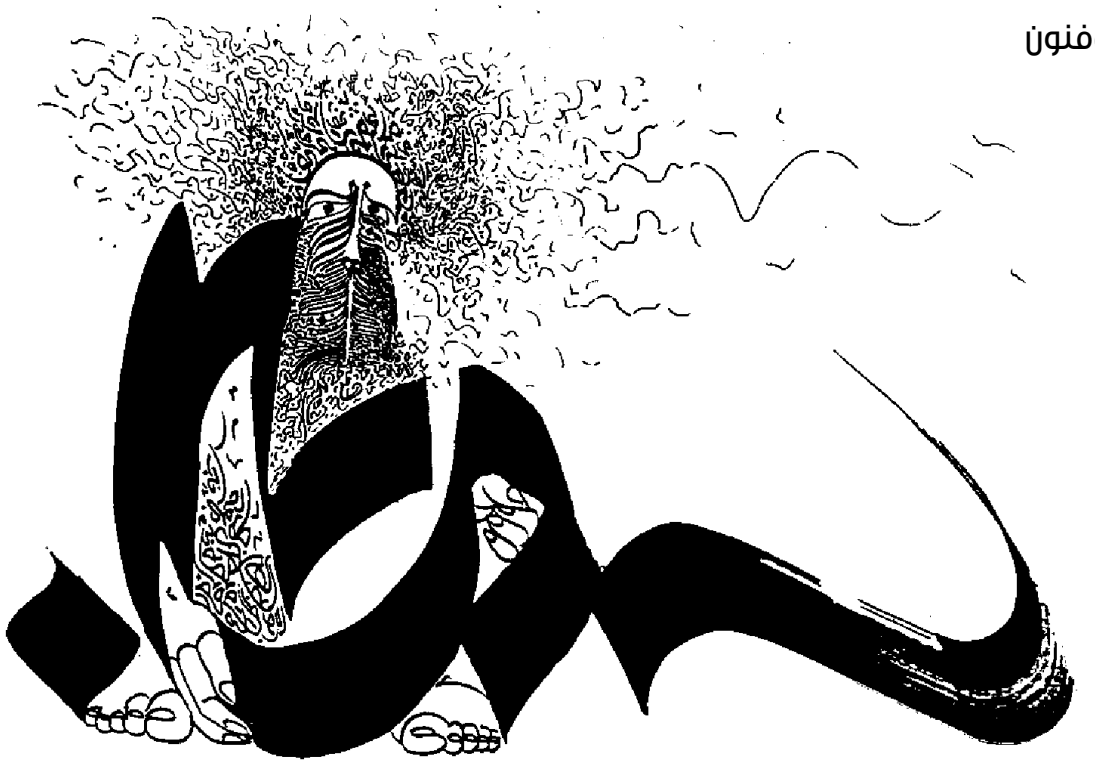

..وهكذا الحال في «الشحاذ»

القوية إلى افتراس الصور الضعيفة كما تسعى الذئاب إلى افتراس النعاج، فيوم هجم الاستعمار علينا في نهاية القرن التاسع عشر لم يكفِه افتراسنا لحماً ودماً، بل أعمل فينا آلة التصاوير الرأسمالية الفتاكة، فصادرت منا تصاوير ثقافة المجتمع قبل الرأسمالي، وفي الوقت نفسه حظرت علينا الانتفاع بتصاوير ثقافة السوق الرأسمالية بذريعة جهنمية مضمونها أن «الشرق شرق، والغرب غرب»... إلى آخر تلك المقولات الشهيرة. ومن يومها ونحن يتامى نبحث عن طريق ثالث مستحيل بين الماضي والحاضر. في هذا المشهد -مشهد المنازعة الجمالية الطبقية المعولمة- أسعى إلى أخذ حقي في الميراث الإنساني من تصاوير الوجود، مثلما أسعى إلى أخذ نصيبي من غنائم حرب التصاوير المعاصرة، ولا أدين لأحد بشيء».

غنائم الحرب

بشأن مسألة الغنائم هذه، يستشهد موسى بحكاية بطلها مبدع آخر، فيقول إن بعض أصدقاء الكاتب الجزائري الفرانكوفوني كاتب ياسين من الوطنيين

الأولمبياد والكراسي المتحركة والدولار.. من أعماله في معرض بروكسل الأخير، بإذن من «غاليري باسكال بولار»

الجزائريين سألوه «لماذا تكتب بلغة المستعمر؟»، فأجابهم «الفرنسية غنيمة حرب»! ويشمل النصيب الذي يأخذه موسى قبل كل شيء «غنائم حرب التصاوير»، فينفخ فيها من روح ثقافته العربية-الأفريقية في أعمال يمكن تصنيفها في باب «الرد على وجهة النظر الغربية»، أو «كيف ترى الثقافة المصوّرة صورتها بعينيها هي؟». ولا يستطيع الناظر إلى بعض هذه الأعمال مغالبة الشعور بأن الفنان السوداني يستعير لغة تشكيلية ساخرة تضع إحدى ساقي العمل في خانة الكاريكاتير السياسي.

وخذ، مثلاً لهذا، لوحته «فن إزاحة الألغام» التي يستقيها من لوحة الفنان الفرنسي جان فرانسوا ميّيه، وهي لفلاحتين فقيرتين تبحثان عن القوت في الأرض. لكن موسى يعيد تأويلها في لوحة تذهب إلى أبعد من مجرد التباكي على الفقر، إذ يضيف بضع أيدٍ تعرض كيفية تضميد الجراح برغم أنها هي نفسها جريحة. وقد يتوقف نظر المشاهد عند لوحة أخرى معنونة بـ«سان جورج يقتل التنين والعون الغذائي العالمي» أيضاً، وهي حلقة في سلسلة طويلة من اللوحات التي تعالج موضوع سان جورج والتنين كما ورد في لوحة «سان جورج يقتل التنين» لفنان عصر النهضة رافاييل. لكن العنوان وطبيعة «الموتيفات» ينحرفان بالدلالة الأسطورية للوحة رافاييل، لتجعل من العمل مناسبة للتأمل في سخف العنف السائد في عالم اليوم وعبثيته. وهكذا يمضي هذا العمل ليحمل الكثير من الظلال السياسية المشحونة باستنكار الوضع الراهن، والسخرية التي تصبح جزءاً من ذلك «النصيب في الغنيمة» أيضاً.

وبين أعمال موسى، على هذه الشاكلة الساخرة، التي اجتذبت قدراً من الاهتمام النقدي الأوروبي، خمس لوحات كبيرة موضوعها جوزيفين بيكر -الراقصة الأمريكية السوداء التي كانت ترقص على المسرح في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وحول خاصرتها حزام من الموز كناية عن أسلوب الحياة

بعض أصدقاء الكاتب الجزائري الفرانكوفوني كاتب ياسين من الوطنيين الجزائريين سألوه «لماذا تكتب بلغة المستعمر؟» فأجابهم «الفرنسية غنيمة حرب»!

البدائية المنسوبة إلى الأفارقة. وفي هذه اللوحات يحاول الفنان، مسلّحاً بالريشة الماهرة والوعي التشكيلي-الفكري العالي، عرض قضايا الهوية الأفريقية، وتناقضات النظرة العرقية البيضاء إلى العرق الأسود.

جمال الكتابة «المزيّفة»

حتى في كونه كاتباً لا يتخلى موسى عن كونه تشكيلياً، فهو يقول «أظن أنني دخلت على الكتابة أولاً من باب الرسم. كنت أرى إخوتي الأكبر سناً يكتبون في كراساتهم ويقرؤون. وكانت كتاباتهم وقراءاتهم تبدو لي ضرباً من السحر التام، فاتخذت لي أقلاماً وأوراقاً أخربش عليها شيئاً شبيهاً بالكتابة، نوعاً من خربشات تنتمي إلى المنطق الخطوطي لعلامات الكتابة، ولتنظيم وحداتها الغرافيكية على نحو الكتابة الرسمية. وأظن أن خربشاتي هذه كانت تقابَل بشيء من السخرية من الكبار، كونها، من جهة، مفارقة للكتابة المدرسية الرسمية، ومن الجهة الثانية لم تكن تندرج في مقام الرسم الإيضاحي الذي كانت لي فيه مهارات. هذه «الكتابة المزيفة» التي كنت أمارسها، كاحتمال في الرسم، كانت مقروءة لي (وحدي!) كنصّ بصري خامته الكتابة».

هذا «النص البصري» الذي يتخذ مادته الخام من «شكل الحرف» بلوره موسى في عدد من كتبه (وهي نحو 25 كتاباً أصدرتها دار «غروندير» الفرنسية). ومن هذه الكتب -على سبيل المثال فقط- «قاموس فرنسي إنكليزي كله بالعربي»، و«أبجدية شهرزاد»، و«حكايات الخطاطين والسلاطين»، و«هل رأيت الطائر؟»، وهذه كتب تتألف رسومها من القيمة الجمالية لكل حرف وما يمكن أن تجنيه العين في حال كان الشيء -أيّ شيء- يتخذ شكله من الأبجدية ولا شيء سواها. وبرغم أن أعماله من هذه الفئة تبدو للوهلة الأولى كأنها موجّهة إلى الأطفال، فهي في الواقع موجّهة إلى الأعين من الأعمار كلّها؛ بسبب المستوى الفكري والفني العالي الذي تستبطنه. وحسن موسى فنان متفرّد، ليس في تعدد أساليبه التشكيلية وإتقانه كلاً منها بمهارة مدهشة فحسب، وإنما في أشياء صغيرة أيضاً، كأساليب عرضه التي تشمل «التشكيل الحي»، مثل إيجاد لوحة عملاقة من البداية إلى النهاية أمام أعين زوار معرضه، أو تقديمه «لوحات سريعة» ينجزها على الورق هدية لكل زائر.

□

* كاتب وصحافي مقيم في لندن، المملكة المتحدة

«بهلول».. مثال لقيمة الحرف التشكيلية